
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية







المجتمع المغربي قبل الاستعمار
بعيون سيدة إنجليزية

ذ.الشريف الرطيطبي

باحث في تاريخ المغرب المعاصر

إن الباحث في تاريخ الزوايا الدينية المغربية في القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، لا بد أن يقف عند مؤلف يضم مذكرات سيدة انجليزية تحمل لقب شريفة وزان، بعنوان" **قصة حياتي**". و قد ترجم مؤخرا من الانجليزية إلى الفرنسية [145].

[145] Keene, Emily: **Histoire de ma vie** (Edition française établie par El Yamlahi Mohamed et Zemmouri Mohammed Saâd). Publications du GREMENORD, Tanger, 2001. **Histoire de ma vie** par Emily Keene , Epouse du Grand Chérif d'Ouezzane. Texte français avec introduction, présentation et annotations de Sidi Mohamed EL Yamlahi et Mohammed-Saâd Zemmouri., Publications de la Fondation Sidi Hadj Abdeslam pour la Recherche et la Sauvegarde du Patrimoine Culturel et Spirituel- Tanger , 2éme édition, 2008.(Le titre original **:My life story** by Emily Sharrefa of Wazan . Edward Arnold, London, 1911.

و من أجل استخلاص الصورة التي شكلتها هذه السيدة الانجليزية عن المجتمع المغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و العشرية الأولى من القرن العشرين، و هي التي عايشت جزءا مهما منه كزوجة لشخصية بارزة هو الشيخ الثامن للزاوية الوزانية، وقفنا على دراسة مهمة تستحق أن يضطلع عليها الباحثون الذين تعوزهم اللغة الفرنسية كما عموم قراء لغة الضاد. و يتعلق الأمر ببحث منشور باللغة الفرنسية تحت عنوان:

نظرة سيدة إنكليزية بخصوص المجتمع المغربي في أواخر القرن التاسع عشر من خلال قصة حياتها[146]

قمنا بتعريب مضامين هذا البحث، مع قليل من التصرف فيه، و الذي يهدف إلى معرفة كيف كان ينظر إلى المجتمع المغربي من طرف الآخر. و هذا الآخر هذه المرة ليس من المختصين سواء الباحثين في مختلف المجالات من علماء الاجتماع و الأنثربولوجيين و الرحالة و المستكشفين، أو الجواسيس و المبشرين، وإنما من طرف سيدة انجليزية قدر لها أن تعيش حياتها بطعم مغربي، في وسط مغربي أصيل، بعد أن قرنت مصيرها بمصير زوجها الشريف الوزاني بما كان له من نفوذ روحي و اجتماعي و سياسي، بفضل ما كانت تلعبه زاويته من أدوار متعددة في المجتمع المغربي خاصة و الشمال الإفريقي على وجه العموم، في إطار علاقاتها المختلفة مع المخزن المغربي أو مع القوات الأجنبية بطنجة و خاصة فرنسا، والتي سيصبح هذا الشيخ واحدا من أهم محمييها.

وإذ نستأذن الأستاذ الدكتور العميد محمد سعد الزموري في تعريب هذه الدراسة القيمة، فلأننا نرى أنها تساهم في تسليط الضوء على " نظرة الآخر إلى المجتمع المغربي" في هاته الفترة الحاسمة من تاريخه، أي ليلة إمضاء عقد خضوعه لنظام الحماية الاستعماري.

نظرة سيدة إنكليزية بخصوص المجتمع المغربي

في أواخر القرن التاسع عشر من خلال قصة حياتها

ملخص:

في سنة 1873، قررت إميلي كين، الشابة الإنجليزية، أن تتزوج في طنجة بسيدي عبد السلام الشريف الكبير لوزان. و هو شخصية مغربية مرموقة و شيخ طريقة صوفية مؤثرة هي الزاوية الوزانية. و ستقضى بقية حياتها بجانبه، و قد منحته من زواجهما طفلين، و ستدفن في أرض المغرب.

[146] Regard d'une Anglaise sur la société marocaine à la fin du XIXème siècle à travers son récit de vie, Mohammed Saâd ZEMMOURI. Anaquel de Estudios Árabes 2006, vol. 17, pp 237-258.

في قصة حياتها، الموسومة ب« قصة حياتي» والمنشورة سنة 1911، تركت لنا شهادة هامة عن زوجها وعن المجتمع المغربي في أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين. و في هذه المقالة سنناقش نظرتها عن زوجها من جهة و عن المجتمع المغربي من جهة ثانية.

الكلمات الرئيسية: التمثيل، النساء، الدين، المجتمع، العقليات.

« باريس هي أكثر المدن روعة و سحرا، و قد يكون بمقدورنا أن نقضي فيها شهورا جد متميزة. و أخشى مع ذلك، كمقيمة دائمة فيها، ألا أتمكن من تعويد نفسي على مدن مثل باريس أو لندن حتى. أنا سعيدة دائما بالعودة إلى بلدي بالتبني، على الرغم من أن ذلك يجعل أصدقائي يصيحون بأنني أصبحت مغربية أكثر من اللازم. لا يمكنني أن أتفق معهم، لأن حياتي، أو بالأحرى نمط حياتي كان دائما أوروبيا، وإحساسي بالواجب تجاه أولئك الذين وضعوا الكثير من الثقة في شخصي يجبرني على البقاء (معهم) ما استطعت إلى ذلك سبيلا. »

إميلي كين، قصة حياتي

مقدمة:

في سنة 1872 تكتشف شابة إنجليزية المغرب الذي استقرت فيه بصفتها مربية أطفال لدى أسرة أجنبية ثرية مقيمة في طنجة (أسرة بيرديكاريس les Perdicaris)، و تعرفت من خلالها على واحد من الأهالي. لم يكن أي كان من الأهالي، فهو ينحدر من سلالة النبي وعضو واحدة من العائلات الأكثر شهرة في البلاد و شيخ زاوية دينية قوية.

هذه الشخصية القوية جدا و صاحبة النفوذ هو الشريف سيدي عبد السلام، المعروف أيضا باسم الشريف الكبير لوزان. و قد دفعه انجذابه للفتاة إلى أن يتقدم إليها بعرض للزواج. و بعد أن ترددت عدة مرات وافقت في الأخير على الزواج منه لأنها وجدته جذابا، وشعرت بالحب تجاهه، والأمر المهم هو أنها لاحظت أن لديه أفكار و ميولات أوروبية. و بزواجهما سيسجل الشريكان عقد زواج فريد من نوعه و مثير للاهتمام، و الذي أرادت الزوجة أن تنص بنوده على ما يضمن حقوقها و مصالحها.

و هكذا تبدأ مغامرة إميلي كين في المغرب الذي ستستقر فيه في نهاية المطاف و تعيش كل ما تبقى من حياتها، و ستموت و تدفن بأرضه. و في كلمة واحدة فإنها، بموافقتها على اقتسام الحياة مع شريف وزان، قررت ربط مصيرها بمصير بلدنا الذي ستجعل منه وطنا لها، مقابل تبني المجتمع المغربي لها كعضو كامل العضوية فيه. .

من حسن حظنا أن إميلي كتبت قصة حياة تحت عنوان بسيط هو **قصة حياتي**، و قد نشرت باللغة الإنجليزية سنة 1911، و نشر نصها مؤخرا في نسخته الفرنسية. هذا النص، الذي تروي فيه حياتها إلى جانب الشريف، هو وثيقة قيمة لها أهمية كبيرة بالنسبة للباحثين الذين يهتمون بتاريخ المغرب،

بالنظر إلى العديد من الجوانب التي يتضمنها. فهو ذو قيمة تاريخية و إثنوغرافية و سوسيولوجية وأدبية، إلخ ..

إنها امرأة إنجليزية عرفت مجتمعنا من الداخل، تتحدث عن المغرب و عن وضعه الاجتماعي والسياسي، و عن الذهنيات، و الدين و الأخلاق .. و تقدم لنا صورة عن بلدنا كما رأته و تصورته. و نقترح هنا أن نقدم تحليلا للنظرة التي كونتها إميلي عن المجتمع المغربي في أواخر القرن التاسع عشر. و بعبارة أخرى يتعلق الأمر بدراسة تمثل المغرب في قصتها الرائعة .

1. زواج إنجليزية بمغربي في القرن التاسع عشر: بعض الحقائق الهامة

أود، قبل الشروع في تحليل الصورة التي تعطي **كين** عن المجتمع المغربي، تسليط الضوء على عدد من الحقائق المهمة عن المؤلفة، من أجل فهم أو التعرف بشكل أفضل على شخصية هذه المرأة الاستثنائية ذات القدر المتفرد.

أصبحت إميلي كين زوجة لسيدي عبد السلام على الرغم من معارضة عائلتها. و قد قبلت الزواج من شريف وزان بوضعها عددا من الشروط التي تم التنصيص عليها في عقد موثق من طرف عدلين مسلمين. و بذلك فإنها طالبت أن يتلقى أطفالها تعليما، و ألا يتخذ الشريف زوجة أخرى(معها)، و أن يكون بإمكانها أن تمارس طقوس ديانتها، والخروج من منزلها بحرية، و أخيرا أن تدفن بعد وفاتها في بلدها. و سيتم احترام جميع هذه الشروط باستثناء واحد منها، و ينبغي التأكيد على هذه الحقيقة الملحوظة ، إذ تخلت هي ذاتها عن واحدة من متطلباتها: فقبل وفاتها أعربت عن رغبتها في أن تدفن في الأرض المغربية التي لم ترد أبدا تركها حبا و ولاء لها.

و نسجل حقيقة أنها، عندما وصلت إلى المغرب، كانت لا تعلم شيئا عن هذا البلد الذي ستكتشفه و ستراكم مع توالي السنين معلومات واسعة عنه. و هناك ملاحظة أخرى هي أن إميلي ستتعود على الحياة في بلدنا وستندمج فيها إلى درجة أنها عندما تعود إلى إنجلترا (مرتين) و تسافر إلى أوروبا، و خاصة إلى فرنسا، قالت أنها كانت تشعر فيها بأنها أجنبية تماما، و تعترف أنها لم تعد تستطيع العيش خارج المغرب. و ستشعر هناك بأنها اقتلعت من جذورها و تعيش في بلد أجنبي. و هذا يعني التغيير الذي حدث لديها ! و يجب أن نضيف أيضا إمكانية اعتناقها للإسلام، خصوصا إذا صدقنا بعض إفادات أعضاء من أسرتها[147] .

و هناك حقيقة أخرى هامة هي أنها اختارت الاندماج في المجتمع مباشرة بعد زواجها. و نتيجة لذلك قررت أن تتعلم اللغة العربية الدارجة بغية تمكنها و فهم البلاد التي اختارت العيش فيها. و في هذا الاتجاه أود أن أؤكد أنها اختارت الانفتاح على المجتمع، و الاتصال بالأهالي و التواصل مع الناس. هذه الشابة الإنجليزية التي تكتشف عالما جديدا، كثيرا ما ستلاحظ و تسمع و تناقش و تسأل. و كثيرة هي

[147] انظر بخصوص هذه النقطة طبعتنا الفرنسية لنص إيميلي، و هي حقيقة تناقضها شهادة شقيقتها، حيث نرفق نسخة من رسالة بالملحق في كتابنا.

الحقائق التي ستسلط الضوء على شخصية هذه المرأة الرائعة في كثير من النواحي. هذا الانفتاح على حقائق واقع بلدنا انطلاقا من ثقافتها الخاصة و مما هي عليه، دون أحكام مسبقة، بدقة كبيرة و بلباقة، تظهر الكثير من التعاطف والفهم والذكاء.

من المؤكد أن كين ترى الأشياء و تحكم عليها من وجهة نظر سيدة إنجليزية بثقافة أوروبية و ديانة انگليكانية. كما أن الأفكار التي تعبر عنها من خلال قصتها، و الأحكام التي تصدرها تتوافق مع نظرة الأوروبيين. و لكن هناك اختلافات بين طريقة نظرتها و طريقتهم، والتي يتم أحيانا التعبير عنها بشكل صريح في النص. و في المقابل فإن المعاملة التي يخص الأهالي بها إميلي تبين أن كل ما كتبه الأجانب[148] عن المغاربة و موقفهم المعادي للغرباء هو موضع شك كبير و يدل على أحكام مسبقة و يبرز النية في الجدال العقيم. فالمغاربة كانوا دائما يحترمون المتعاملين معهم من الأجانب عندما يعرفون أنهم لا تحركهم نوايا عدوانية أو مضرة بهم أو أن ليس لهم دوافع خفية. و هو الأمر الذي يبين، على الرغم من سياق مغربي جد صعب كما نعلم، مواقفهم تجاه إنسانة مثل إميلي التي تشهد هي ذاتها مرات عديدة في هذا الاتجاه. و نكتفي هنا بهذا الاقتباس: « كان الذهاب إلى حيث كنت أريد بالنسبة لي شعورا شخصيا كبيرا بالرضا. لم أعرف أبدا الخوف في بلدي بالتبني، و سأسافر إلى أي مكان بإحساس كبير بالأمن.[149]»

2. إضاءة على نص إميلي كين

لنتكلم الآن عن قصة كين. فهذا النص كتب لقراء الإنجليزية/الأوروبيين الذين تتحدث عنهم إميلي على طول قصتها. و يبقى تحديد المتلقي مهما في ما يسميه علماء اللغة بشروط الخطاب. و مع ذلك ينبغي التأكيد بوضوح أنه ليس من فئة الأدب الاستعماري. بمعنى أنه يحيد في أهدافه ومضمونه عن روايات الرحالة الأوروبيين على وجه الخصوص، وهم كثر، الذين زاروا المغرب منذ القرن التاسع عشر، و ألفوا الكتب التي كانت غايتها أو وظيفتها الأيديولوجية تهم إضفاء الشرعية على المشروع الاستعماري. ليست هذه هي حالة قصة إميلي كين.

---

[148] انظر نصوص معظم الأوروبيين الذين يسافرون إلى المغرب على طول القرن التاسع عشر. و هي تشير إلى سياق تاريخي معين يتميز بعدم الثقة والعداء والتوتر الناجم عن الأطماع الأوروبية حول المغرب. لنذكر في هذا الخصوص شهادة مسافر مميز جدا و موضوعي و معاصر لإميلي كين، والذي درس جيدا المغرب، هو الڤيكونت شارل دو فوكو في كتابه **التعرف على المغرب** (1884-1883) حيث يقول : "خمسة من عشر المغرب هي مغلقة تماما في وجه المسيحيين. و لا يمكن أن يدخلوا إليها إلا عن طريق الخداع أو المخاطرة بحياتهم. هذا التعصب المتطرف لا يحدث بسبب التعصب الديني، بل يوجد منبعه في شعور عام لدى كافة الأهالي. فالأوروبي الذي يجول في بلادهم، بالنسبة لهم، لا يمكن أن يكون إلا مبعوثا أرسل قصد التعرف عليها، و يأتي لدراسة الميدان بغرض الغزو. و على هذا الصفة فهو يقتل وليس لأنه كافر. و دون شك كانت الكراهية العرقية القديمة و الخرافات تأخذ نصيبها في ذلك أيضا، لكن هذه المشاعر تأتي في المرتبة الثانية. و كان يأتي الخوف منه كغاشم أكثر منه كمسيحي. التأكيد من عندنا." Avant-propos, p XI-XII. Editions L'Harmattan, 1998.

[149] مباشرة بعد وفاة الشريف اضطرت إلى السفر إلى وزان، وكتبت عن وضعها و مشاعرها : «كنت على ثقة تامة بالمغاربة، و الاحترام المستمر الذي أظهر لي في كل مكان أعطاني الشجاعة اللازمة. » (طبعة2011،ص 318)

لماذا كتبت كين كتابها ؟ يبدو أن العديد من الحقائق حفزتها على كتابة ونشر قصتها: فهي مغامرة فريدة تستحق أن تروى، و هي مشروع تبرير و دفاع عن النفس تجاه الإنجليز أو الأوروبيين الذين لا يفهمون أو لا يقبلون زواجها، و هي الحاجة للتفسير و التواصل.   و تهدف الكاتبة إلى إظهار أنها لا تزال هي ذاتها على الرغم من كل ما قيل في هذا الموضوع، و إلى الحاجة لإخبار القراء الأوروبيين عن الثقافة و العادات و الذهنيات في بلد مسلم، و الرغبة في الاستجابة لطلب من أوروبيين و إرضاء لفضولهم، و أخيرا الرغبة في إعطاء شهادة عن شخصية هامة من العالم الإسلامي. هذه هي الأسباب التي يبدو أنها تكمن وراء كتاب إميلي كين.

و لم يكن من الضروري أن تشعر الكاتبة، بتحرير نصها و نشره، بأي نوع من عدم الراحة أو التوتر. فهي تناقش المواضيع التي تعالجها بحرية كاملة و بكل صراحة. لأن الناس الذين تتحدث عنهم لا يمكنهم قراءة كتابها، ليس لأنها تتكلم عنهم بسوء، و يمكن للقارئ أن يحكم على ذلك بنفسه، ولكن لأنها في وضع يمكنها من الكتابة دون رقابة ذاتية. و كان عليها، بوضعها كإنسانة غريبة معتنقة للمسيحية، و يجب التأكيد على ذلك، أن تلتزم الكثير من التحفظ و الحيطة و الحذر لكي تتجنب الإساءة إلى المشاعر و العقليات[150].

و هكذا فإن كين في نفس الوقت الذي تروي في قصتها(التي تغطي الفترة من سنة 1873 تاريخ الزواج حتى سنة 1911:عشية الحماية و تاريخ نشر الكتاب)، حياتها في المغرب إلى جانب زوجها الشهير و ابنيهما، فهي تقدم لنا لوحة عن المجتمع المغربي، بل المغاربي، كما عرفته من خلال محيطها و أعضاء من أسرة وزان، و من خلال رجال و نساء مدينة طنجة خاصة حيث كانت تقيم، و أيضا أهالي مدن مغربية أخرى كانت تسافر إليها في كثير من الأحيان رفقة الشريف، و أيضا لوحدها.

نقترح هنا إذن تحليل النظرة التي كونتها عن مجتمعنا، و أن نقف على الحكم الصادر عنها و الذي يتعلق ببلد و مجتمعه، انطلاقا من رؤيتها كأوربية. و هكذا فإننا نجد أنفسنا أمام« ثقافة مشاهدة » (بكسر الهاء) و« ثقافة مشاهدة» (بفتح الهاء)على حد قول **دانييل هنري باجو**[151] Daniel-Henri Pageaux. و بذلك، فمن الواضح أن وضع كين، أو بالأحرى موقفها، كان خاصا جدا: فهي في الحقيقة تحكم على مجتمعنا انطلاقا من ثقافتها. و لكن بما أن وجودها في المغرب تحول إلى إقامة دائمة و

---

150 تشير الكاتبة في قصتها إلى بعض الوقائع أو الأوقات غير السارة. و يكفي أن نذكر هنا حادثة محاولتها تلقين التعليم الأوروبي للالا هبة، ابنة الشريف (من زواج سابق)، والتي تسببت في ردود فعل عدائية من محيطها ، مما دفع كين إلى التراجع. و في معرض تعليقها على هذه التجربة، كتبت تقول: "لم أحاول أبدا فرض وجهات نظري على المسلمين. أجبت دائما بحذر على الأسئلة المطروحة في بعض الأحيان على المواضيع الدينية، و حتى اليوم، أتجنب الجدل ذي الطبيعة الدينية (...). "(المرجع نفسه،ص 64) وبخصوص هذه النقطة تجدر الإشارة إلى أن كين كانت على بينة من موقفها الدقيق كزوجة لشخصية بوئت في أعين مواطنيها وضعا دينيا وسياسيا ، بصفته رئيس طريقة صوفية قوية، الأمر الذي كان يضطرها إلى مراعاة مصالح زوجها، والتأكد من أن سلوكها لا يثير أي احتجاج أو استنكار.

151 انظر كتابه **الأدب العام والمقارن** **La Littérature générale et comparée**، طبعة أرمان كولان، باريس، 1994. و يعني فيه باجو بمفهوم الإمجولوجيا صورة الآخر أو، إذا أردنا القول، تمثيل الأجنبي، أي مجموعة الأفكار التي نكونها عنه. و فرضية باجو هي أن الصورة تحمل دائما شعور الاختلاف الثقافي، والتي تجعل الآخر موضوع الكتابة تبعا لرمز خاص بفترة زمنية و بمجتمع أو ثقافة، والتي تعكس أساسا الهوية الثقافية لمن ينتجها.

باتصالها الطويل بالمغاربة ، فإنها ستتأثر بثقافة الأهالي و ستتغير نظرتها للناس و للأشياء بشكل عميق. فهذه الإنجليزية التي سترتبط مصيرها بالمغرب، ستتميز في الواقع بتجربتها في المنفى بين المغاربة حيث ستعتمد جزئيا بعض طرق النظر أو رد الفعل. نحن أمام ما يسمى ظاهرة التثاقف، و إن كانت في الواقع بشكل جزئي. ألم يلاحظ بنو جلدتها في كثير من الأحيان أنها **تمغربت أكثر من اللازم** ؟[152]

هكذا اعتمدت هذه الإنجليزية، وهي تشعر أنها مختلفة عن الناس الذين تعيش بينهم منذ عقود، موقفا منفتحا تجاههم. و أدت بها وضعية الاتصال الثقافي هذه إلى التبدل إلى حد شعورها أنها أصبحت مختلفة أيضا عن أبناء وطنها الذين ستبدو لها طريقة حياتهم في بعض مظاهرها غريبة عنها عندما ستسافر إلى إنجلترا وإلى أوربا[153].

هذا هو موقف كين، و الذي يبدو أنه كان معبرا للغاية عن الأشخاص الذين يوجدون في ما يسمى بحالات اتصال الحضارات. لأن المعادلة- و ليسمح لنا القارئ بهذا التعبير الرياضي- التي كان على هذه السيدة أن تحلها يمكن أن تصاغ على النحو التالي: كيفية البقاء هي ذاتها و العيش في المغرب و العمل على أن تكون مقبولة من طرف الأهالي، و كيف تندمج وتبقى وفية لبني جلدتها أو الحفاظ على الروابط مع الأوروبيين؟ فعلى ضوء هذه الملاحظة الهامة يجب قراءة قصة كاتبتنا و فهم حالتها الذهنية.

3. نظرة الآخر، نظرة نقدية

لم يبق بمقدورنا الاكتفاء بالتحفظات حول آراء المسافرين والمراقبين الأجانب في الفترة التي نتحدث عنها، بحجة أنها تصدر عن أشخاص معادين لحضارتنا، وهم ضحايا التحيز وغير نزهاء في أحكامهم و أسرى نزعة عرقية أكثر أو أقل وعيا، و أنهم تحركهم الأفكار ذات الخلفية الاستعمارية. فمن المؤكد أن هذه الأفكار صحيحة لأن الواقع يبررها[154]. و لكن ليس لأن الانتقادات التي تصدر من طرف الأجانب عن بلدنا يجب أن تفند دائما باعتبارها مشكوك فيها ولا أساس لها. نحن بحاجة أيضا إلى إعادة النظر في مراجعة تاريخنا بعين ناقدة، و التي يجب أن تمكننا من مقاربة هادئة وشفافة وموضوعية عن حقائقنا بعيدا عن الترجيحات. و إن حقيقة أن مجتمعاتنا كانت مريضة في الوقت الذي انتشرت فيه إرادة

152 « ولكن كمقيمة دائمة، أخشى ألا أتمكن من تعويد نفسي على مدن مثل باريس أو لندن حتى. أنا سعيدة جدا بالعودة إلى بلدي بالتبني، على الرغم من أن هذا يجعل أصدقائي يصيحون بأنني أصبحت مغربية زيادة. لا يمكنني أن أتفق معهم، لأن حياتي، أو بالأحرى نمط حياتي ، كان دائما أوروبيا ، وإحساسي بالواجب تجاه أولئك الذين وضعوا الكثير من الثقة في شخصي يجبرني على البقاء بينهم لمدة أطول ما استطعت.» (المرجع نفسه، ص334).

153 لنذكر انطباعاتها وأفكارها حول رحلة قامت بها إلى انجلترا سنة 1901 « بعد عطلة لمدة ثلاثة أشهر، غادرت بانطباعات بلدي الأصلي المختلفة جدا عن تلك التي كنت أعزها لحدود الآن. كانت انطباعاتي رائعة بمعنى ما، لكنني لم يكن بمقدوري أن أتخلص من إحساس غامض بالإحباط. "(المرجع نفسه، 349). " فخلال هذه الرحلة فقط أدركت كيف ظهر مدى اختلاف نمط حياتي لغالبية الأوروبيين، على الرغم من أنني أعتقد أنني قد حافظت إلى حد كبير على أخلاق وعادات سيدة إنجليزية، و أنني دفعت كثير من الناس إلى احترامها، وأيضا العديد من الأهالي لإتباعها كأفضل ما لديهم. و أنا أحاول أن التشبه بهم في عاداتهم و تقاليدهم بأقل قدر ممكن ، وخلال كل هذه السنوات التي عشتها في المغرب لم يكن لنا أبدا أي صراع، مهما كانوا جد مختلفين عن ذوقي. » (المرجع نفسه، 349). انظر أيضا الاستشهاد في الحاشية 8.

154 يمكن القارئ الرجوع لهذه الجوانب في المؤلفات المرجعية لإدوارد سعيد:

- L’Orientalisme, Edition du Seuil, 1997 - Culture et impérialisme, Edition Fayard Le Monde diplomatique, 2000.

الهيمنة بوضوح بين القوى الأوروبية، وأنها كانت توجد في وضع تأخر مزمن و ضياع، ليست نظرة متعقلة. و حتى إذا كنا لا نستطيع أن نعترف بكل ما في الصورة السلبية المقدمة عن مجتمعاتنا من قبل الأجانب في ذلك الوقت، وإذا كان من المشروع المطالبة بالاستفادة من هذا المخزون، فيجب اعتبار أهم ما يجب أخذه من هذه الصورة، لأن مثل هذا العمل ضروري ومفيد لأي مجتمع يريد أن يستمر في الحياة و النمو و المضي قدما نحو التجديد و الابتكار والتغلب على أوجه القصور الخاصة به. لهذا يبدو لنا أنه من المهم أن نأخذ بعين النظر و بجدية نظرة الآخر عنا، و تقييمها كوسيلة مفيدة و ذات قيمة، لأنها تنبع من مسافة نقدية لها قيمتها، و التي لم نتمكن بعد من الوصول إليها، و لو أن هذه المقاربة النقدية تجاه ذواتنا هي مستحسنة و مفيدة[155].

و لكن بغض النظر عن الخلافات حول العديد من تحليلات وأفكار المراقبين الأجانب في ذلك الوقت، فإن الاختلاف الجوهري الذي يمكن أن يكون لنا معهم يتعلق أولا بالدوافع والغايات التي تحكم خطاباتهم ومناهجهم النقدية- إنه أمر يموقعهم مع وجهة نظر تتعارض تماما مع الموقف الذي سيسود مع الاثنوغرافيين الذين سيتناولون المجتمعات البشرية من زاوية تسهل الدراسة والفهم- و من جهة أخرى حول فرضية أو نظرية أن الصفات السلبية للأهالي تنشأ من جوهر ثابت، وإذا كانت كذلك، فهي طبيعتهم، ولن يتغيروا أبدا!

غير أنه يجب وضع المرأة التي نقوم بتحليل النظرة التي تحمل عن مجتمعنا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بدلا من ذلك في معسكر الإثنولوجيين، و ليس في معسكر الايديولوجيين (السياسيين) الذين يسعون إلى تبرير كذا مشروع استعماري، كما أنها تفسر صفات الأهالي بالعوامل الثقافية وليس بطبيعة ما تخصهم.

3. سيدة إنجليزية تراقب المجتمع المغربي و تصدر أحكاما حوله

عاشت كين إلى جانب الشريف، زوجة له منذ عام 1873، لمدة تسعة عشر عاما. و قضت في المغرب حوالي ثمانية و ستين سنة. وعندما نشرت كتابها سنة 1911 كانت موجودة في هذا البلد منذ حوالي أربعين عاما. و هذا يعني أن هذه السيدة الإنجليزية كانت معرفتها بالمغرب معرفة عميقة. كانت علاقاتها مع هذا البلد و مع مجتمعه تمر في البداية عبر الشريف، لأنه هو الشخص الذي يعيش بالقرب منها و يجسد المغرب في عينيها. فهو الوسيط بينها وبين المجتمع، يلعب دور المترجم و الدليل، و هو مصدر الأخبار. نحن لا نهدف أن تكون هذه الدراسة شاملة، ولكننا سنقف عند حدود ما يمثل الطابع البارز، و الذي يتعلق أولا بالشريف[156]، وبعد ذلك بالنساء كمجموعة حاضرة بشكل كاف في متن كين، وأخيرا بالمجتمع بشكل عام

---

155 نذكر هنا بالنظرة الأجنبية، وخاصة في القرن الثامن عشر خاصة من طرف مونتسكيو، في: **Les Lettres persanes** ، الذي يسمح بالنأي بالذات عن الذات من أجل ملاحظة أوجه القصور وسخافات مجموعة اجتماعية.

156 وضع الشريف، كزوج محبوب و مثير للإعجاب، وضع خاص . لكنه يبقى أيضا ممثلا للمجتمع المغربي.

1 . الشريف

يبدو أن إميلي قد فتنت بشخصية زوجها الشريف عبد السلام الوزاني. و قبل زواجها به أعجبت هذه الشابة الإنجليزية ذات الديانة الانجليكانية بما سمعته عن هذا الرجل الذي كان موضع تبجيل كبير من طرف أبناء ديانته. فكون الشريف رئيس طريقة صوفية كبيرة ذات صيت واسع، وباعتباره ينحدر من سلالة النبي، كان يعتبر صاحب بركة عظيمة. و كان الناس يأتون إليه كما لو كانوا يأتون إلى شخص مقدس.

غير أن سمة بارزة في شخصية الشريف أعجبت كين، وهي أنها لاحظت إعجابه بأوروبا. فهذا الرجل الذي يجسد الإسلام الصوفي يبدو أن لديه ميولات وأفكار أوروبية. و يبدو أنه ينتمي ضمن النخبة الوطنية إلى فرع يمثل الأقلية من السكان التي تطمح للجمع بين التقاليد والحداثة. وبذلك فإنه من دعاة تحديث البلاد والمجتمع عبر الانفتاح على أوروبا وحضارتها، مؤيد للإصلاح، مع التعليم للجميع، مع حفظ الصحة، ومع إنشاء البنية التحتية والتصنيع ،الخ.

و من وجهة النظر هذه، ما كان للشريف ليبدو ممثلا للمجتمع المغربي. وعلى أي حال فهو كان مختلفا عن بقية الأهالي. و هذا ما تؤكد عليه منذ البداية زوجته في قصتها، و هي تسلط الضوء على ذلك عدة مرات. فالشريف كان«مختلفا عن المغاربة الآخرين الذين كنت قد التقيت بهم.» (المرجع نفسه، ص56) و كانت له ميولات أوروبية، و هو معجب بأوروبا حتى أنه كان يرنو إلى العيش فيها[157]. و كان متسامحا، يرافقها شخصيا إلى الكنيسة حيث كان ينتظرها إلى حين قيامها بطقوسها الدينية. و لم تكن بحاجة لتتخفى لتناول الطعام الذي لا تحرمه عليها ديانتها. كان الشريف ليبراليا و يحترم آراء و معتقدات الآخرين، شعاره «عش و دع غيرك يعيش» (المرجع نفسه، ص76). و كان يسمح لزوجته بأن تلبس طفليهما ملابس أوروبية. و هو على خلاف مواطنيه، كما تقول، لم يكن يؤمن بالخرافات. وهي تعتبره صاحب «ذكاء متفوق جدا»على ذكاء المغاربة. وهو مع تعليم الأطفال(المرجع نفسه،ص 146)، و قد سجل ابنيه من إميلي في مدرسة فرنسية في الجزائر. و يحترم وجهات نظر زوجته التي كان يتبع رأيها عموما[158]، وخاصة فيما يتعلق بالتربية[159]. و كان يدعم ويشجع حملات التطعيم الطبي التي تنظمها. و يبدو بمثابة مساعد قوي و فعال لجهود زوجته في إدخال الإصلاحات في المجتمع الأهلي و من أجل تغيير العقليات، بالنظر لما يتمتع به من كاريزما و تأثيره في عقول الناس. (المرجع نفسه،ص 133).

---

157 بسبب الخلافات التي وضعته في مواجهة السلطان. انظر حول هذه النقطة (المرجع نفسه، ص ص:67-68)

158 أعطاها اختيار اسم طفلهما الأول مع علمه ، تقول إميلي ،أن النساء الأوربيات لهن رأي في مثل هذا النوع من الأشياء.

159 « كان الشريف يعطي موافقته كالمعتاد على كل ما كانت تفعله، وخصوصا عندما كان الأمر يعني الأطفال . » (المرجع نفسه،ص 125).

وهكذا فإن الصورة التي تعطينا إميلي عن الشريف صورة إيجابية جدا. فهي تحب زوجها ومعجبة به، وهو بدوره يعشقها. (المرجع نفسه، ص ص: 69-70) ولكن من المهم أن نلاحظ أن الإعجاب التي تكنه للشريف ينبع من اختلافه مقارنة بمواطنيه، كما أشرنا إلى ذلك، و إلى ميولاته الأوروبية[160]. وبعبارة أخرى، فإن جاذبيتها لهذا الرجل تبدو قريبة أو متناسبة مع ما تلاحظه من درجة تقارب بينه وبين الأوروبيين. و في نهاية المطاف فإن إميلي اعترفت بقيمة مغربي كان يبدو لها متحضرا أو أنه اعتنق الحضارة الأوربية[161].

ومع ذلك، فإن القصة تبين لنا وجها آخر للشريف تبرز فيه إميلي بعض صفاته السلبية. و في الواقع فإن العلاقة بين الشريف و كين ستمر بمرحلتين متميزتين. مرحلة تميزت بسعادة زوجية كبيرة، و بإعجاب متبادل وفهم عميق بين الشريكين، و ستستمر من تاريخ الزواج (1873) حتى صيف عام 1884 ،و هو التاريخ الذي كان نقطة تحول في العلاقات بين الزوجين. و مرحلة اندلاع أزمة بينهما في أعقاب ما تعتبره إميلي التغيرات في شخصية وسلوك الشريف. فهي تشير إلى التأثير الضار لشخص من جنسية فرنسية لم تذكر اسمه[162]. هذه التغييرات ستؤدي إلى تدهور العلاقات بين إميلي وزوجها و سيصلان إلى الانفصال، و بعدها إلى الطلاق. وهناك عدد من الحقائق المصاحبة المثيرة والمفسرة للأزمة بينهما: فالشريف أصبح يعاني من رهاب(فوبيا) متزايد من هجوم يجعله يخشى على حياته، و يعتقد أن المخزن أو بعض الأوساط المرتبطة به تريد تصفيته جسديا، و الذي بسببه أصبح سلوكه غير منطقي تماما حسب شهادة زوجته. و أصبح يعيش حالة من التبذير و الإسراف، والتي يبدو أنها كانت إغراء له، بتأثير من الشخص الأجنبي الذي أشرنا إليه و من بعض أفراد من الأسرة، لإهدار ممتلكاته من خلال التزاماته دون علم منه في معاملات مالية مع شخصيات غريبة و مريبة[163]. و أصبح الشريف غير راض على إميلي مما أدى به إلى محاولته فصل الطفلين عنها. و اتخذ واحدة من خادماتهم زوجة له، الشيء الذي سيؤدي بطبيعة الحال إلى الطلاق من الانجليزية[164].

و ارتباطا بهذه الفترة، تغيرت صورة الشريف و أصبحت سيئة لدى إميلي و هي تتحدث عن رفيق دربها. وقد أعربت عن أسفها عن الرجل الذي وجدته أكثر ذكاء من مواطنيه و هو يتخذ « طريقا

160 التأكيد من عندنا.

161 هذا المصطلح تستخدمه مرة واحدة فقط في النص حين حديثها عن مدينة « متحضرة »عندما تذكر إمكانية القيام برحلة إلى الجزائر لإتاحة الفرصة لابنها لرؤية مدينة أوروبية. (المرجع نفسه، ص 364): « خلال فصل الصيف لعام 1907 أخذت وعدا بالالتحاق بمولاي علي الذي كان يوجد في الجزائر، للسماح لصغيراي برؤية مدينة متحضرة والسفر بالقطار. ».هذا التأكيد من عندنا.

162 انظر فقرة « بدايات مشاكل أسرية ».

163 تزعم إميلي أنها بفضل بصيرتها و يقظتها، و ومن أجل حماية مصالح أسرتها و أولادها، تمكنت من إفشال كل المناورات المشبوهة التي كانت تهدف إلى جر الشريف إلى مضاربات ومعاملات مالية وخيمة.

164 لن يكون الانفصال نهائيا ، و سيرجعها الشريف كزوجة له.

كانت تقوده إلى الخراب والاستسلام لتأثيرات غير عقلانية لا يمكن لأي منطق و لا أية قناعة معادلتها. » (المرجع نفسه،ص 285).

إننا لا نذكر بهذه الحقائق لطرافتها. و نحن في الواقع ما زلنا في الموضوع ونحلل هنا العلاقات مع الشريف دائما من وجهة نظرنا، تلك العلاقة مع الآخر والتمثيل الذي أعطي بخصوصها من طرف إنسانة أجنبية تصدر أحكاما انطلاقا من ثقافتها. فهي ثقافة تصدر أحكاما على ثقافة أخرى مختلفة، اعتمادا على أطرها العقلية والاجتماعية و تصنيفاتها. و في هذا الاتجاه، و بعد أن برزت الآن التناقضات بينهما لتكشف عن اختلافات ثقافية، تؤكد كين على الفرق الشاسع بينها وبين زوجها، و تبرر صبرها عليه موضحة : « كان والدا لأطفالي، و بعد كل شيء فإنه كان غريبا بأفكار و أساليب وعادات مختلفة عما لدي.» (المرجع نفسه،ص 294). و هي تحاول في فقرة أخرى تفسير سلوك الشريف الذي يشعر أنه مضطهد، باستخدامها تقريبا نفس الحجج، مسلطة الضوء على عامل علم النفس الجماعي الخاص بالمغاربة قائلة: « كان الأمر مع الشريف يختلف كثيرا عما كان يمكن أن يكون مع شخص أوروبي. فالأفكار والأساليب والعادات لدى المغاربة تجعلهم يفهمون الأمور بشكل مختلف جدا عنا. و خيالهم من بين (الخيالات) الأكثر تدفقا، وهم يستخلصون النتائج على عجل قبل علمهم التام بالموضوع. » (المرجع نفسه،ص 305)

و لذلك نرى أن إميلي، بعد أن نشب الخلاف بينها وبين الشريف، ستنتج خطابا يعطي الأسبقية في شخصية زوجها للاختلاف بدلا من الانجذاب و التشابه. ففي حين كانت تميل إلى تمجيد الشريف فإنها ستحكم عليه بعكس ذلك ابتداء من الخلاف بينهما، و ذلك بتسليطها الضوء على عيوبه، و في الواقع تشويه صورته. و بالتالي فهي لا تتردد في الحديث عن «الأنانية الفطرية (لهذا) العرق» (المرجع نفسه،ص 297) أو «الجبن»[165] المتعلق برفيق حياتها. ولكن مع هذه التصنيفات ذات البعد النفسي المرتبطة بالصحة العقلية والنفسية في سياق يتسم بالخوف من الاغتيال، ننأى بأنفسنا عن مسألة الاختلاف الثقافي.

و إذا كان الشريف في شهادة إميلي يحتل بقوة الأشياء مكانة عظيمة، فقصة هذه السيدة الإنجليزية تمنحنا أيضا صورة عن المجتمع المغربي بتقاليده وعاداته ومعتقداته، إلخ .. و هي تمنح بشكل خاص مكانة متميزة للنساء اللواتي كانت لها معهن علاقات القرب كما نقول اليوم.

4. النساء: موضوع حظي بالملاحظة بامتياز

أفردت كين العديد من الصفحات في قصتها للنساء اللواتي تتحدث عنهن بطريقة خاصة. و يجب التذكير والتأكيد هنا على الحالة الذهنية الإيجابية لهذه السيدة، و موقفها المنفتح، و رغبتها في المعرفة و الفهم و التواصل. فهي بفضل زواجها أصبحت جزءا من مجتمع الأهالي، ونسجت علاقات وثيقة للغاية و

165 « أنا آسفة أن أقول أنه كان الرجل الشجاع بشكل غير عادي ، و يبدو أنه أصبح جبانا. » (المرجع نفسه، ص 278).

قوية و مكثفة و حميمة مع النساء الأخريات. و تمكنت من أن تكون على دراية بالنساء المغربيات، ملاحظة و دارسة لطبعهن و لنفسيتهن، و عادتهن، و طريقة تفكيرهن، و أفكارهن و ثقافتهن.

و قد قررت في وقت مبكر بعد زواجها أن تتعلم اللغة العربية لتتمكن من التواصل مع الناس وفهم العالم من حولها. و بعد أن حصلت على كفاءة لغوية نسبية ستعتزم خلق علاقات وثيقة وقوية مع النساء من الأهالي. و هكذا قررت أن تستقبلهن في منزلها، و قد خصصت استقبالا أسبوعيا للجنس اللطيف. و كعلامة على انفتاحها واندماجها، كانت ترتدي اللباس المغربي في الاستقبال الأسبوعي. و لكنه لم يكن إطار الاتصال الوحيد مع النساء المغربيات، بما أن هذه الإنجليزية الاجتماعية و صاحبة حس فضولي كانت تكثر من

الاتصالات والعلاقات معهن في ظروف جد متنوعة. و هي تراقبهن في حياتهن اليومية، و في أعمالهن، في اهتماماتهن المختلفة، في الأعياد، ومختلف الاحتفالات، وخلال أسفارها، إلخ .. فكيف تبدو النساء في قصة كين؟

إن تمثيل الجنس اللطيف يكشف عن نظرة نقدية، لكنه يظهر لنا في الوقت نفسه جوانب إيجابية، و هو ما يقودنا بعيدا عن الصور النمطية عن المجتمع الأهلي التي تميز أدب الرحالة و المسافرين الأجانب الذين كتبوا عن بلدنا. و نحن نريد تحديد الجوانب البارزة للصورة التي كونتها كين عن النساء.

تجد زوجة الشريف النساء المغربيات عند محاولة الانفتاح عليهن مندفعات و مسبوقات إلى حد ما. و هكذا عندما قررت بعد سنوات قليلة من زواجها استقبالهن في منزلها، كشفت التجربة خيبتها، لأنها أدركت بسرعة أن الزيارات تتم يوميا و باستمرار و على طول النهار، مما لا يترك لها سوى القليل من الوقت لحضور نشاطاتها الأخرى. لذلك قررت أن تخصص لهن يوما واحدا في الأسبوع.

وأدت بها اتصالاتها وعلاقاتها مع النساء إلى اكتشاف أنهن محدودات جدا، جاهلات، وسطحيات. لذلك فهن بالكاد يقدرن على البقاء في محادثة ذات قيمة: « المحادثة مع سيدة مغربية أمر صعب جدا. و بمجرد أن يتم الاستفسار عن صحة الأسرة، أو التعبير عن إعجاب بثوب لباس جديد أو وشاح جديد، لا يبق شيء يمكن قوله. » (المرجع نفسه،ص 151).

و لاحظت كين عدة عيوب في المرأة المغربية، فهي تسلط الضوء على «التشهير» الذي ينتشر بشكل واسع النطاق بينهن، و على الطيش والقيل والقال، والعبث، وعلى خيالهن المفرط. و تقول أن ذلك طبيعة مشتركة بين جميع المغاربة. فهن لا يستطعن التحكم في محادثة بناءة و لا يعرفن حقا كيفية التواصل، لأنهن يتكلمن كلهن في وقت واحد، ولا واحدة منهن تستمع إلى الأخرى. و بالتالي يحدث، في نظرها، نشاز عام يمنع في الواقع من تحديد موضوع النقاش. و تلاحظ كين فيهن صفات سلبية أخرى مثل الفضول غير الصحي، والاختلاط وعدم احترام الحميمية[166] إلى درجة الإحراج. و تفتقر المغربيات أيضا،

[166] في مقطع من قصتها، بعد تأكيدها على كرم الضيافة عند النساء المغربيات، تضيف قائلة: "النساء العربيات فضوليات جدا، و هن قل ما يحترمن الحياة الحميمية. و لا يعرفن غير ذلك، كما لا ينبغي لنا أن ننزعج، لأن نيتهن تبقى حسنة. "(المرجع نفسه، 227)

في رأيها، إلى حس أو روح التنظيم، مما يتطلب عدم منحهن المبادرة بل يلزم تسييرهن[167]. و هي ترى أن النساء تحدث كثيرا من الصخب بمناسبة الأعياد، وعلى الخصوص حين تكون جد مشحونات وكثيرات الانفعال إلى درجة الهستيريا أثناء الأحداث المأساوية، وخاصة في المآتم[168]. و في مستوى آخر تتحدث عن الجهل المتفشي على نطاق واسع بين النساء، و عن خرافاتهن ومعتقداتهم السخيفة التي تفسر سلوكهن[169]، و كذلك الممارسات الاجتماعية المختلفة[170]. و هذه الصفات لها أيضا عواقب وخيمة بما أن هذا الجهل يؤدي إلى وقوع حوادث و حتى إلى الموت.. و تثير كين إلى خطر مشكل التربية الذي يعكس في نظرها أوجه القصور لدى النساء[171]

ومع ذلك فإن إميلي لم تنتبه للعيوب فقط. فهي تعترف، على سبيل المثال، بأن النساء تظهرن حسا كبيرا في الملاحظة، بحيث، كما تقول، أنهن «مراقبات» بشكل كبير، لهن أحكامهن وانتقاداتهن الحاسمة (المرجع نفسه، 151). و هي تؤكد على حسن كرمهن، مشيرة إلى أنهن يعبرن عن الطيش، غير أنها تضيف قائلة أنهن «ذوات نوايا حسنة». و تشير أيضا إلى نظافة النساء[172]، فهن يغسلن أيديهن .وعلاوة على ذلك تبين كين جيدا أن النساء على استعداد للإصلاحات، و يتقبلن التقدم. و لهذا تتبع الكثير منهن النصائح بخصوص حفظ النظافة، و تغذية الرضع و ما إلى ذلك.

---

167 « على الرغم من أنهن ممتازات عموما على عادتهن، فليس لديهن أية منهجية، وهن أفضل بكثير عندما يتم توجيههن. » (المرجع نفسه،ص 254) و تلاحظ في فقرة أخرى :« إشراك ثلاثين امرأة في رحلة هي المهمة التي لا يمكن لأية امرأة أوروبية أن تفهمها أبدا. لا يوجد أي نظام. الإثارة تحولهن إلى مجنونات. وسيتشاجرن بدون سبب في الأوقات الحرجة ... » (المرجع نفسه، 178)

168 تلاحظ في هذا الاتجاه أن« الضوضاء هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنني أن أمنعه ، و أنا لا أستطيع تحمل آثاره، حتى لو أن أوروبيا قد يجد فيه متعة. » (المرجع نفسه،ص 353)

169 كين تصدر حكمها - وهو أمر طبيعي- كون بعض العادات لدى النساء هي «غريبة». و تحكي، بعد حضورها عمليات للولادة، كيف أنها صدمت بالعديد من الأشياء التي لاحظتها. و بالتالي فإنها تشير إلى الظروف السيئة التي تحدث فيها الولادة، و هو ما سمته ب«الإنزعاجات» : غرفة الولادة سيئة التهوية، نقص في الوسائل، و الملحقات المتوفرة الوحيدة تظهر، حسب قولها، أنه يعتمد كليا في هذا النوع من الأحداث على الله وعلى الأولياء الصالحين، و يسود خلالها جو من التصوف.

170 و هي تروي بقدر كبير من التفصيل المشاهد المؤلمة من مظاهر الحداد بعد وفاة ابنة الشريف، العروسة الشابة التي توفيت أثناء الولادة، مما أثار مظاهر الهستيريا الجماعية التي أزعجت كثيرا المؤلفة. « كان العرض في فناء الدار لا يوصف. أصيبت النساء بتشنجات هستيرية، كانت أجسادهن تتلوى، و وجوههن ملطخة بالدم الناتج في في كثير من الأحيان عن خدوش عميقة بأظافرهن، أو أظافر غيرهن. و كانت صدورهن عارية، وهن يضربنها حتى تصبح كتلة من الكدمات، لأنهن في ألمهن المحموم كن يفقدن السيطرة على أنفسهن. (...). (المرجع نفسه،ص 214). و في وفاة الشريف كانت هناك مظاهر هستيريا جماعية أكثر إثارة و قد وصفتها المؤلفة، و صدمت للغاية و هي تشهد مثل هذه المظاهر: «الوجوه مخدوشة بفظاعة ،الصدور والملابس ممزقة، و رؤوسهن شعثاء. »، «الصرخات بالمنزل تضعف معنوياتي تماما ، ولم يكن هناك أي إمكانية للهروب من الضجيج والصراخ. » ، « الرجال يجهشون بالبكاء(...) و كانت النساء تصاب بالهستيريا وينتفن شعرهن في الشوارع» (المرجع نفسه، 313 و 314). لم تتمكن كين من فهم هذه التعبيرات المبالغ فيها، مقارنة مع ما يحدث في أوروبا، حيث يحافظ خلال الحداد على سلوك محترم.

171 في أمور الدين تشير إلى أن معظم النساء غير مدركات لها ،و هن تحاولن تقليد آبائهن من دون فهم :« الجهل بين النساء أمر يبعث على الأسى. ثم يأتي بطريقة آلية روتين الدين عندهن ، ولكن تسعة وتسعين في المائة ليست لديهن المعرفة اللاهوتية لتبادل ما تعلمنه من آبائهن أو إخوتهن أو أزواجهن .» (المرجع نفسه، ص354) و في مجال التعليم، و حفظ الصحة، والرعاية وما إلى ذلك، فهي تحكي بحزن عن نفس الجهل و عن المعتقدات المألوفة بإفراط بين النساء. وتسلط الضوء على «الأساليب البدائية» الجارية لعلاج الأمراض، مما يتسبب في العديد من الوفيات (المصدر نفسه ،ص127 و ص 362). و من بين هذه المعقدات الغريبة، الممارسة المنتشرة على نطاق واسع بين النساء و هي ربط رأس الرضيع عند الولادة خوفا من أن يتعرض إلى « رجات في الدماغ» ! (المرجع نفسه، 127).

172 «في أعمال الطهي المغاربة هم بصفة عامة نظيفون للغاية. » (المرجع نفسه، 151) و هي تؤكد أنه قبل أخذ الوجبات يغسلون أيديهم.

و هذه السيدة أدخلت اللقاح الطبي و عملت على نشر استخدامه. و تمكنت- خصوصا بفضل التدخل الحاسم من طرف الشريف- من أن يكون له تأثير إيجابي على العقليات، على الرغم من التحفظات والشكوك المختلفة في البداية

فقصتها تسلط الضوء على هذه التغييرات الإيجابية، وبالتالي استعداد الناس، ولا سيما النساء، لقبول الابتكارات التي تثبت فوائدها. نحن أيضا أمام مجتمع أظهر موقفا من الانفتاح على كل ما هو خطوة نحو تحسين ظروف العيش، نقيض مجتمع جامد تماما و منغلق إلى حد التعصب كما كان يراد له أن يظهر، حذر فيما يتعلق بكل ما يأتي من الخارج، حتى لو تم التأكد من صلاحيته. و تؤكد كين مرارا وتكرارا في قصتها، التي تغطي فترة من أربعين عاما، تطور المجتمع المغربي، و خاصة النساء، نحو آفاق أفضل، و التفتح على التعليم والصحة وغيرها.

وهي غالبا ما تقارن على طول قصتها بين الوضع الذي كان قائما منذ عقود عديدة- سنواتها الأولى في المغرب - و الفترة التي تكتب فيها. لنذكر هذا المقطع ، من بين مقاطع أخرى: «لدي شكوك حول حقيقة أن اقتراحاتي تم استيفاؤها كافة، لكن حالة الأطفال الرضع تحسنت كثيرا وانخفضت وفيات الأطفال بشكل ملحوظ مقارنة بثلاثين سنة خلت.» (المرجع نفسه، 353). و بذلك فكين تخلص إلى تغير في العقليات، فبالحديث عن تطور النظافة بين الناس فهي تقول:« إنهم الآن مقتنعون بأن المبشرين قادرون تماما على القيام بنفس التدخلات الحميدة ، مثل الأولياء الصالحين، دون بركة . » (المرجع نفسه، 134).

و كما نرى، فإن موقف كين يتناقض مع الطريقة التي كان المسافرون الأجانب الآخرون في نفس الوقت يتعاملون بها مع الحقائق المغربية في مختلف شهاداتهم. هذه الإنجليزية، برهنت على نوع من التناسب والصحة في كثير من هذه الأحكام، وعلى الموضوعية التي هي من نوع تلك التي تسود بين علماء الأنثروبولوجيا الذين يدافعون عن ضمان أن يكون لهم موقف من الانفتاح على الآخرين، و التي من المحتمل تمكينهم من فهم المجتمعات التي يراقبونها و يدرسونها. و بالتأكيد فإن كين تنظر بعين مراقبة ناقدة، تحكم على الأمور من منظور تهيمن عليه النزعة العرقية. و بوجود ذلك، فهي تتكلم عن الرجال والنساء المغاربة ككائنات تحبهم وتحترمهم، و تريد مساعدتهم بإتباع أفكارها ومعتقداتها حتى تكون لديهم حياة أفضل. و أن ما من دافع خفي لها غير الرغبة في نشر الخير من حولها، وتقاسمها مع الآخرين كل ما تعتبره عادلا، صحيحا و جيدا. إنها تصف لنا مواطني منطقة من العالم، لا يتفقون مع ثقافتها، ترسمهم في إنسانيتهم، و بعيوبهم، ولكن أيضا بمحاسنهم، ككائنات لهم رؤيتهم الخاصة للعالم و الإنسان، و بعاداتهم، التي لا تفهمها في بعض الأحيان، لكنها تحترمها. لأن ما يبدو أنها تهدف إليه هو مساعدة الأهالي لإصلاح حياتهم لتحسين وضعهم و لو وفق روح و رسالة دينهم، و هكذا يمكننا أن نفسر موقف هذه الإنجليزية. و قد كتبت هذه السيدة الانڭليكانية لتقول: «العديد من المبادئ الإسلامية جيدة جدا،

و إذا ما اتبعت سيكون الناس سعداء. ولكن للأسف! الممارسة هي عكس عقيدة الإسلام [173]»(المرجع نفسه، ص362).

و تبين لنا قصة كين أن المؤلفة لم تعتمد منظورا ضيقا للسيرة الذاتية يركز فقط على ذاتها وعائلتها. إنها مشابهة في الواقع، في العديد من الصفحات، لنص ذو طبيعة إثنوغرافية حيث يتم وصف أنماط عيش الأهالي و تفكيرهم. وهو يعكس انفتاح هذا الأجنبية ذات الحس الفضولي و الاجتماعي، و الموهوبة بحس كبير من التواصل. و بذلك فإنها كانت قادرة، بفضل انفتاحها على النساء موضوع ملاحظاتها اللواتي كانت تلتقي بهن و تسائلهن، من معرفة متعمقة بالجنس اللطيف الذي تركت لنا حوله التحاليل والملاحظات والأفكار التي قمنا بتحليل أهم العناصر البارزة فيها. و في الواقع كانت لدى كين رغبتها لكي تفهم كل ما كان يحدث حولها، و نتيجة لذلك كانت يقظة تجاه جميع فئات مجتمع الأهالي.

و بعد رؤية كيفية تمثيل النساء في سردها أريد التطرق الآن إلى النظرة التي تحمل عن المجتمع بشكل عام.

3. نظرة على المجتمع المغربي

النص السردي لكين يحتوي على ثروة من الملاحظات تطول و تقصر، مصحوبة أحيانا بأفكار وأحكام شخصية على الحقائق الاجتماعية في مغرب أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين. و هي ملاحظات لها صلة بالدين وبالممارسات الدينية والمعتقدات والثقافة والعقليات والتقاليد والعادات وغيرها .. و باختصار لدينا لوحة تمثل قدرا كبيرا من التفاصيل عن حياة وعقليات مواطنينا عشية الحماية، لوحة من وضع ملاحظة مستنيرة وناقدة تركت نصا يماثل وثيقة إثنوغرافية حقيقية لا يمكن الجدل حول غناها وأهميتها. لذا نقترح تحديد أهم الجوانب البارزة من التمثيل الذي تمنحه لنا المؤلفة عن مجتمعنا في تلك الفترة.

سنبدأ بالدين، بالنظر إلى أهمية العامل الديني في البنى العقلية والثقافية والاجتماعية للمجتمع المغربي. ففي الواقع منحت كين الكثير من الاهتمام لجوانب العقيدة والمعتقدات، والمواقف التي تحكمها، و للخرافات، ومختلف الممارسات الدينية أو الصوفية. و هذا الأمر يفرض نفسه أكثر باعتبار أن زوج إميلي شخصية لها وضع اعتباري و دور روحي . فهو بصفته رئيس زاوية دينية يمثل إسلاما صوفيا و شعبيا في مجتمع حيث يتجذر التدين بعمق في العقول و التقاليد.

و باعتباره من سلالة النبي، فهو في أذهان الناس، يمتلك قوى خارقة للطبيعة، و مصدر لا ينضب من النعم بسبب البركة التي من المفترض امتلاكه لها. و هو يعتبر شخصا مقدسا يستمع إلى كلماته باهتمام و

---

[173] تعليقا على أهداف و مشاريع المبشرين الذين يسعون تحت ذريعة العمل الإنساني إلى تنصير الأهالي، فإنها تصدر حكمها: «الجهود المبذولة للتنصير هي خطأ كبير » (المرجع نفسه، ص11)

باحترام و بتقوى، و التي يمكن أن تجلب لهم الراحة و تخفف من الآلام وتعالج الأمراض، و تحل المشاكل و تمنح البركة والرخاء للناس. فالشريف موضع تقديس وينتظر منه الشيء الكثير.

و كانت كين، التي عاشت إلى جانبه و رافقته في كثير من الأحيان في أسفاره، في وضع يمكنها من مراقبة مشاعر و سلوك الجماهير تجاهه، باعتباره ظاهرة فريدة مرتبطة بالتدين الإسلامي. وهي تؤكد أن شرفاء وزان هم موضع «تبجيل كبير». هذا الأخير يفسر بشرف سلالة الأسرة التي تنحدر من النبي، و التي من المفترض أن تمتلك موفور البركة، بفضل تقوى الزعيم الروحي و العمل الخيري والاجتماعي الذي يلعبه شيخ الزاوية، و خاصة من خلال مؤسسة دار الضمانة، أي دار المأوى و اللجوء، والذي يضمن لشرفاء وزان هيبة وإشعاعا هائلين. .

و تنسب إلى الراحل الحاج سيدي العربي، والد زوج إميلي، قوى خارقة غذت المتخيل الاجتماعي. و تذكر كين البعض من «العديد من الأساطير الرائعة» التي تتحدث على ما فيها من عجائب. و لدى زوجها أيضا ، في أعين الناس، نفس القدرات.

غير أن ما قد جذب أساسا انتباه وخيال كين هو الحماس الذي تحب به الجماهير الشريف. و غالبا ما كانت تحضر هذه التظاهرات بسبب مرور الشريف في منطقة ما، في الأرياف أو في المدن. و كانت إميلي، عندما شاهدت مثل هذه المشاهد لأول مرة، مندهشة للغاية ومفتونة و هي ترى الحشود المتحمسة التي أصابها الوجد أمام زوجها و هي تسعى بكل الوسائل لتراه، لتقترب منه، و لتلمسه. فمشاهد الهستيريا الجماعية، و الاندفاع، و التدافع، وتحركات الحشود، كل هذا أمر غير مألوف بالنسبة لها، لأنها لم تعرف هذا النوع من الظواهر في بلدها، و لم تكن تتصور أن شعبية و هيبة و كاريزما الشريف كزعيم روحي لزاوية دينية يمكن أن تصل إلى مثل تلك الدرجات.

وخلال أول سفر لها صحبة الشريف خارج المغرب، في الجزائر، تكتشف ما لزوجها من وزن، و المشاعر التي يلهمها للأهالي و مظاهر الإصابة بالنوبات المرضية الشديدة و الفرح و الحماس الطائش«... وجدت نفسي متزوجة من رجل يتمتع بنفوذ وكاريزما لم أكن أتصور للحظة أنه يمتلكهما ». (نفسه، ص 90). و في وهران، تم استقبال الشريف والوفد المرافق له من قبل "حشد محموم" لا يمكن السيطرة عليه بعد أن اجتاح الفندق حيث يقيمون. و لم يقبل الناس مغادرة المكان إلا بعد الحصول على وعد من الشريف بضمان استقبالهم جماعة من أجل أن يبارك لهم. فهي تشهد «مظاهر غير عادية»، وتراقب من خلال نافذة «مسحورة بهذا الحشد المتنافر» و كل ذلك كان جديدا بالنسبة لها، ويختلف كثيرا عن كل ما رأته أو قرأته من قبل. (المرجع نفسه،ص 93) . و قد اكتشفت على الخصوص التبرعات العينية والنقدية التي يقدمها الناس للشريف و أسرته وهو الأمر الذي صدمها[174]. هذه المشاهد وهذه الأحداث تقع في كثير من الأحيان عندما يكون الشريف في زيارة مكان ما، في المغرب أو في البلدان المجاورة

[174] وهي تروي حكاية عن القايد الذي فرض عليها أن تأخذ منه مبلغا من المال، الأمر الذي أحدث لها صدمة كبيرة. (المرجع نفسه، 93-94)

ولكن ما يثير إعجابها و يحرك إحساسها على الخصوص في سلوك الجماهير الحاشدة هو هذا الهيجان، هذه الهستيريا الذي تجعل الناس يفقدون كل ضبط للنفس، و هو ما يقضي على أي تعقل. و الحالة الثانية هي النشوة، و الوجد، و اللاعقلانية التي تؤدي بهم إلى أفعال طائشة. إنهم يرتكبون الحماقات من أجل الاقتراب من الشريف، و يوضعون أنفسهم أمام خطر الإصابة بالسوء أو الموت. فخلال رحلة إلى وجدة، تقول:« مع اقترابنا من وجهتنا، أصبحت الحشود أكثر كثافة، والناس لا يبدون أي قلق من الدواب التي كانت تدوسهم. إنهم قد يموتون من أجل رؤية زعيمهم الديني. فإذا كان ذلك مكتوبا عليهم فكذلك سيكون مصيرهم.» (المرجع نفسه، ص115). و تحكي كين، وهي متعجبة، بقدر كبير من التفصيل مشاهد الحماس الأعمى التي كانت شاهدة عليها : ملابسهم ممزقة، فرسهم منهكة حيث يتم نتف شعرها للتبرك، التراب الذي يمشون عليه يحمل لتفرك به الأبدان، أو أن البعض يأكله، والتدافع والضرب و الجروح، لأن الأمر يلزم استخدام الهراوات لتهدئة الناس،الخ! و تقول معلقة على ذلك:«جنون السكان فوق كل خيال ولا يمكن وصفه »و« في جهة تلمسان بالجزائر، يتسبب هذا الحماس الأعمى وغير المتعقل في الكثير من الحوادث»(المرجع نفسه).و« الناس غير مبالين و غير حذرين إلى حد التهور أو فقدانهم للوعي، يخاطرون بأنفسهم ويواجهون الأضرار ليتمكنوا من الاقتراب من الشريف و هم يرتكبون في ذلك «الفظائع»[175]. الحشود تتبع موكب الشريف على مسافة كيلومترات إلى حين استنفاذهم لقواهم. وفي بعض الأحيان كان الجيش يتدخل لتمكين مرور موكبهم. و تعلق إميلي، التي اعتادت مع مرور الوقت على هذه الظواهر و معايشة مثل هذه المشاهد، قائلة أنه «عذاب» حقيقي (المرجع نفسه، ص120). و خلصت إلى فلسفة ذلك كونها « مظاهر معتادة بين العرب. » (المرجع نفسه).

و ما يلفت انتباهها أيضا خلال هذه اللقاءات مع الناس الذين يبحثون عن الاتصال و التواصل مع الشريف، هي الهدايا و خصوصا التبرعات بالمال. و قد قالت أنها تشعر بالصدمة و الغضب من هذه الممارسات المنافية لأخلاقها، خصوصا أن الشعب، باعتبارها فردا من أفراد الأسرة الشريفة، كان يفرض عليها أيضا المال. و إذا كانت في النهاية تقبله رغما عنها، تحت الطلب الملح من الشريف، فمن أجل ألا تغضب هذا الأخير الذي كان يوضح لها أنها « العادة » وأنه يجب أن لا تسيء إلى الناس.

واجهت كين - بزواجها من رئيس زاوية من حجم الشريف الذي كان رئيسا لمؤسسة خاصة جدا وذات الصيت في المغرب، دار الضمانة الشهيرة، الذي تترجم حرفيا ببيت الضمان، والتي يجب أن تترجم، في ضوء وظائفها، بدار اللجوء- حياة جد مضطربة ومثيرة بسبب ثقل و كثافة النشاط الناتج عن الخدمات التي تقدمها هذه المؤسسة الكبيرة. ففي الواقع نحن في بلد حيث الزوايا الصوفية احتلت مكانة هامة في

[175] « مرت امرأة في منتصف الطريق عبر نافذة العربة مع طفل رضيع على ظهرها. و كان بالإمكان دهس الطفل لو لم تتدخل أختي سريعا لإنقاذها و قد سحبت إلى الخلف من طرف بعض الناس على الطريق» ، «أدخل رجل رأسه من النافذة وعلى الرغم من إصابته بجروح بالغة تشبث حتى لمس الشريف، وآخر سحقت قدمه. . يكفي من هذه الأهوال! .» (المرجع نفسه، 120)

مجتمع شديد التدين أو أن حماسه الديني كبير، و حيث تنتشر الخرافات على نطاق واسع و تتفوق على الإيمان،[176] و تتطلب الإساءة والظلم الاجتماعي تعبئة القوى المضادة، و حيث الزوايا وخصوصا زاوية وزان كانت تلعب دورا اجتماعيا يهم التخفيف من البؤس وإعطاء الأمل للمرضى، و تصحيح الأخطاء ورد المظالم و مساعدة الفقراء على العيش، و التوسط لدى السلطات، وما إلى ذلك .. .. فضلا عن كون زاوية زان أنها خلقت مؤسسة دار الضمانة، و هو الفضاء حيث يأمل كل الضحايا أن يجدوا فيه الراحة والخدمة والمساعدة والتدخل والشفاعة ،الخ ..إذ في مجتمع مريض كانت دار الضمانة، أو دار اللجوء، تجلب إليها الكثير من الزوار بحثا عن حلول لمشاكلهم أو مظالمهم ، لأن مسكن الشريف كان يأوي معا هذا الفضاء العام الذي يعج بالزوار الذين يأتون للبقاء في بعض الحالات عدة أيام، لحين حسم قضاياهم. و من ثم يمكن للمرء تخيل مشاعر هذه الشابة الإنجليزية المتعودة على وتيرة حياة مختلفة، حيث يحظى الفضاء الخاص باحترام صارم، و حيث الخصوصية مصونة و الهدوء مضمون، و التي ستجد نفسها في مواجهة حشد من الناس في منزل لا يفرغ أبدا منهم، يطلبون بإصرار مساعدة لها قيمتها. لذا كانت كين تجد نفسها ليس فقط أمام مسؤوليات كبيرة من التدبير والإشراف، و لكن أيضا في مواجهة حالات و ممارسات غير عادية، وعقليات غريبة بالنسبة لها[177] !

هذا الموقف الذي كان يسمح لها أن تكون على اتصال مع حشود لا حصر لها من خلال هذا الفضاء سمح لها أيضا أن تعرف جيدا المجتمع المغربي وخاصة علاقات المواطنين مع المقدس، و أيضا أسفارها المتكررة مع زوجها، المرغوب فيه من كل الجهات، ليس فقط في المغرب و لكن أيضا في الجزائر، كل ذلك كان يدفعها لمراقبة وتحليل مجتمع لمعرفة كيف يفكر، و كيف يعمل، و كيف يعيش إيمانه الخ ..

و ما أثار اهتمامها دائما بخصوص هذا السؤال المتعلق بالعلاقات مع المعتقدات هو سمة شائعا جدا: الخرافات. «النساء على الخصوص خرافيات جدا. ولم يكن الشريف كذلك إطلاقا، على الرغم من أنني أعرف الكثير من الرجال الذين يعتقدون تماما في هذا التأثير (تأثير العين)، الذي يعزي إليه المرض وغيرها من الكوارث. » (المرجع نفسه، 77). و خلال رحلة في منطقة الريف أعادت الملاحظات الكثيرة في نفس الاتجاه والتي تعتمد على الحقائق التي تفصلها:« الخرافات منتشرة في جميع أنحاء البلاد ». الإيمان بما في ذلك « قوة العين» يذهب إلى درجة شرح كل خيبات الأمل و المحن. كما أشارت إلى عدد من

176 لنذكر هنا بالحكم البعيد النظر لأوروبية أخرى أحبت المغرب كثيرا ، بلدها بالتبني، و التي عاشت هي أيضا في طنجة ، **إليسا شيمنتي** ذات الحس المرهف في مراقبة الحقائق المحلية، و التي في قصة غير منشورة تعرض علاقة الأهالي بالدين، « الرسالة أكثر من روح القرآن، قليل من المعتقدات كما الطقوس وقليل من الطقوس كما الخرافات. شعور ديني قوي لا يلين، تعصب تولد من طموح اسبانيا إعطاءها للكنيسة إمبراطوريات الأفارقة البيض هاته، شلل الماضي، ازدراء الحاضر و لامبالاة المستقبل » نسخة مرقونة على الآلة الكاتبة سنة 1937 (غير منشورة) بعنوان ذكريات سيدة طنجية» (ص7).

177 تكتب كيين مشيرة إلى جانب من جوانب عمل الزاوية : « من المفترض أن يكون الحد الأقصى للزيارات هو ثلاثة أيام ، و الطريقة الوحيدة لتقول لهم أنكم محرجون من وجودهم هو التقليل من كمية و نوعية الطعام. و مع ذلك، كان هناك من لا يفهم تلك الرسالة. » (المرجع نفسه، 61)

«العادات الغريبة» فالناس لا ينطقون العدد خمسة، ولا يتم النفخ على شمعة، التعويذات مطلوبة ، العرافة جاري العمل بها ، والأمراض العصبية والهستيريا تنسب كلها للشيطان الخ .
و لا يسعنا إلا التأكيد بشكل أكثر وضوحا على سمة متكررة جدا هي الإيمان بالقضاء والقدر. هذه الحالة العقلية المنتشرة على نطاق واسع ، تشرعن في نظر كل المواطنين كل ما يحدث لهم و يسمح لهم بتفسير كل شيء، ويساعدهم على قبول كل شيء. و هكذا فإنها تلاحظ أن الناس كونهم غير متدينين، يفضلون دائما الاعتماد على الجبرية و ما يسمونها بالقدر. و أيضا بالنسبة لهم « تعتبر الأمراض أشياء طبيعية»، و يجب على المرء أن يفهم بوضوح أنها حتمية أو لا يمكن تجنبها[178]. و قدمت نفس الملاحظة حول العديد من الناس الذين، من أجل الاقتراب من الشريف، يرتكبون حماقات صارخة و يعتبرون أنه إذا أصابتهم مصيبة فذلك «لأنها مكتوبة عليهم ».
إلى جانب هذه الجبرية المنتشرة على نطاق واسع بين السكان، تلاحظ كين عقلية التعصب و الحذر تجاه الأجانب و رفض كل ما هو أوروبي. فهي تحكي على الخصوص تجربة ستكون غنية بدلالاتها، ستلهبها في ما تبقى من حياتها وستؤدى بها إلى ممارسة قدر كبير من الحذر في كل ما له علاقة بالدين و احترام عادات و تقاليد المغاربة. القصة تكشف تماما عن ضيق أفق بعض المواطنين. إذ في بداية زواجها أقنعت الشريف لجلب ابنته (للا هبة) من زواج سابق له للعيش معهم. وكانت كين على استعداد لدعم تعليم يتيمة الأم هاته. ولكن بعد أن ارتأت ارتداءها ملابس أوروبية وتلقينها تعليما أوروبيا (دروس في اللغة الإنجليزية، العزف على البيانو)، فإنها أثارت استنكار المحيطين بها من أفراد الأسرة والخدم، الذين احتجوا على التغييرات التي أدخلت على الفتاة، ورأوا في ذلك علامات «ردة » ! وقد أدت هذه الحادثة إلى تدخل الشريف لاستعادة النظام في الأمور العائلية من خلال وضع حد لتلك البلبلة. وطلب من كين التخلي عن عملها التربوي. و هي تقول في هذا الموضوع : « بعد سنوات، علمت من للا هبة نفسها ما كانت تتحمله من المحيطين بها. كانوا يغمرونها بسيول من التهكم بالقول أنها اعتنقت المسيحية، لأن اعتمادها للعادات الأوروبية كان يفسر من طرفهم على أنه خطوة أولى نحو الردة. و في ذلك الوقت، كان جهلي التام باللغة العربية يمنع مثل هذا الكلام، ومنذ أن أصبحت كفأة إلى حد ما، لم أحاول أبدا فرض وجهات نظري على المسلمين. أجبت دائما بحذر على الأسئلة التي طرحت في بعض الأحيان بخصوص المواضيع الدينية، وحتى اليوم، أتجنب الجدل ذي الطابع الديني، على الرغم من أنني غالبا ما ألقيت باللوم على أولئك الذين لم يكونوا يحترمون مبادئهم الدينية[179]. »

---

178 جاءت بهذه الفكرة عندما قررت أن يكون لها منزل خاص لن يكون مفتوحا في وجه الجمهور على غرار دار الضمانة، بسبب أن الأمراض تنتشر مع كثرة الزوار، مما كان يقلقها لأنها تخشى أن يصاب طفلها بعدوى ما.

179 نفسه، ص64 وما يليها.

وإدراكا منها لهذه الفجوة بين المواطنين والأجانب، توصلت الكاتبة إلى ملاحظة هذا الموقف من عدم الثقة بالأوربيين ورفضهم مرارا وتكرارا. و خلال رحلة في منطقة الريف صحبة الشريف، أعربت عن مشاعر الانزعاج نظرا لوجود عالم الجغرافيا الفرنسي الشهير هنري دوڤريبه معهم ، الذي كان على رأس بعثة استكشافية، الأمر الذي كان من المرجح أن يثير ريبة الأهالي و التي انتهت في الواقع بالتسبب في عداء قبيلة طالبت برحيل الأوروبيين المشاركين في هذا العملية[180].

ومن المناسب هنا أن نذكر بالظروف التاريخية[181] التي تضيء هذا النوع من المواقف تجاه الأجانب من الأهالي الذين كانت علاقاتهم متوترة مع القوات الاسبانية المتمركزة بحامية مليلية، والتي كانت لا تتردد في التدخل في المناطق المجاورة، إذ كانت اسبانيا تطمع في احتلال المناطق التي تعتبر غنية بالمعادن. وبصفة أكثر تعميما موقف الريبة، بل العداء الوطني ضد الأوروبيين كان بدافع الأطماع الاستعمارية المتربصة التي كانت تسيطر على السياسة الخارجية للدول الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر. و لا يمكننا إلا أن نرى ذلك في رأينا رفضا مثيرا للانتباه لحشرية الأجانب بموازاة مع نوع من اللاتسامح أو التعصب، بما أن شخصا مثل كين، مع أنها كانت أجنبية فهي لم تكن مقبولة فحسب، بل كانت تتمتع بحسن المعاملة و تكرم من طرف الأهالي الذين كانوا يعتبرونها مواطنة بصفتها زوجة مواطن مغربي. و في علاقة مع الحادث نفسه تقول: "بعد وصولنا إلى مليلية، وصلت رسالة من قائد قلعية يقول فيها انه لا يمكنه ضمان سلامة أي أوروبي يمر بمنطقة الريف.و جاء الشريف لرؤيتي لمناقشة هذه المسألة، وأعرب عن رأيه أن نغادر فورا، لأنه في ذلك الوقت كان من يفترض أنني كنت اشعر بالقلق أيضا بخصوص هذه البيانات التحذيرية. لكن رسالة ثانية بددت هذا الشك، والتي قالت أنها كانت تود "ألف مرة الترحيب بأم مولاي أحمد". (المرجع نفسه، 254-255).

وهناك مثال آخر لهذه الحذر بخصوص كل شيء من أصل أوروبي و التي كتبت عنه كين في ظروف مختلفة، عندما كان الناس الذين كانت تعرفهم و توفر لهم الرعاية الطبية، يعبرون لها عن عدم ثقتهم في الأدوية المصنعة في الخارج ، وبشكل متكرر صناديق الأقراص « التي جيء بها بغاية طمأنة أصحابها أنها لا تحتوي على أي سم لأنهم قيل لهم أن غرض المسيحيين هو إبادة جميع المسلمين » (المرجع نفسه، 132). و مرة أخرى يثبت التحليل الذي قمنا به سابقا أن هذا الرفض ليس مطلقا و لا يشمل جميع الأجانب لكونهم كذلك، بما أن نفس هؤلاء الأهالي يقبلون عن طيب خاطر الرعاية الطبية التي كانت

---

[180] « لم أكن على أحسن ما يرام عندما كان ضيفنا يقوم في بعض الأحيان بعمليات المسح الطبغرافي ، لأنني كنت قلقة من ردود الفعل السلبية المحتملة من الأهالي، بالنظر إلى أنه كان بصحبتنا الكثير من الأجانب الذين لم أتمكن من التحكم فيهم كما هو الشأن بالنسبة لموظفينا» (ص253) . و في الواقع ، كان على كين أن تقدم ، بعد بضعة أيام ، تقريرا إلى هنري دوڤريبه بأنه شخص غير مرغوب فيه« كانت مهمة غير سارة أن أنقل هذه المعلومات إلى السيد دوڤريبه ، مع شعور نفسي بالأسف لتعبيره عن خيبة أمل عميقة .(...) .و كما كنت أتخوف من ذلك ، فإن الاستخدام غير المقنن لهذه العتاد الطبغرافي، و تحديدا قبل يوم وصولنا إلى مليلية، كان السبب الذي أثار الشكوك في الريف (..).» (المرجع نفسه، 255)

[181] انظر حاشية رقم 4، رأي شارل دو فوكو الذي اقتبسناه.

تقدمها له لهم إميلي كين، و وثقوا في قدرتها على تنويرهم وطمأنتهم بشأن هذه الأدوية، كما هو مبين في هذا القصة الطريفة[182].

و أبدت كين أيضا بعض الاهتمام لجوانب معينة من الحياة الاجتماعية المحلية التي تتسم، في رأيها، بالمبالغات، مثل الاحتفالات المختلفة الصاخبة جدا و على مدى عدة أيام،[183] حيث يؤكل الكثير من الطعام، و يستخدم قدر هائل من مسحوق البارود[184]، كما هي وجبات الطعام الضخمة التي تستخدم على طول أيام طويلة العشرات من الأطباق المختلفة، مما يجعل ذلك، حسب رأيها، «كابوسا» أو «عقابا» للبطون، كما الحفلات «المرهقة » (المرجع نفسه، 317) و في المآتم التي تتميز بأزمات الهستيريا ، ولكن أيضا بالساعات التي لا تنتهي حيث يقدم الناس تعازيهم بطريقة تبدو لها رتيبة تحت وقع سماع تكرار نفس العبارة. هذه العادات والتقاليد تبدو لها أنها ثقيلة جدا ومتعبة .

وهناك ميزة أخرى مرتبطة بسيكولوجية المغربي تؤكد عليها كين مرارا و تكرارا ،و قد أثارت انتباهها ،هي الخيال الخصب عند الأهالي. فهؤلاء عوض النظر إلى الأمور بطريقة شفافة و البحث عن تحليل الوضعية ، ينجذبون بسهولة و بسرعة لخيالهم الجامح. وهذا هو السبب في أنهم يميلون إلى تهويل الأمور و المبالغة فيها ، مما يجعلهم غير قادرين على تقدير الأمور بموضوعية [185]. هذا الصفة، تشير إليها مرارا وتكرارا كعيب رئيسي لدى المغاربة. وحتى الشريف[186] الذي تراه مختلفا عن مواطنيه ومتفوقا عليهم من حيث الذكاء والثقافة فهو مخطئ بفائض خياله. و هو، كما تقول، ما يفسر سلوكه الغريب وانجرافه النهائي نحو نهاية حياته عندما يسمح بان يخدع من قبل مستشارين سيئين، ومختصين في التلاعب. و هم الذين، باستغلال خوفه من القتل (كان يشعر بأنه مضطهد من قبل رجال الدولة)، سينجحون في السيطرة عليه تماما. « يبدو أن يدا خفية كانت تعتمد كوسيلة لاضطهاده. و كان الأمر مع الشريف مختلفا جدا عما كان يمكن أن يكون مع شخص أوروبي. أفكار و طرق وعادات المغاربة تجعل الأمور في متناول أيديهم بشكل مختلف جدا عنا. خيالهم لا حدود له، ويستخلصون النتائج على عجل قبل أن

---

182 لنذكر هذا المقطع، من بين مقاطع أخرى، بخصوص وظيفتها :« الطبية» في صفوف الأهالي:« لقد اعتبرني الناس لسنوات أن لي سلطة بالنسبة لمختلف أمراضهم.» (ص132) و نلاحظ هنا أن كين قامت بعمل كبير جدا ومستدام بخصوص التطعيمات والرعاية الصحية المختلفة لصالح المغاربة.

183 « الضجيج هو الشيء الوحيد في العالم الذي لا يسعني إلا أن امنعه و لا أستطيع تحمل آثاره، و لو أن أوروبيا يمكن أن يجده فيه متعة. مباشرة بعد الإعلان عن ولادة طفل تصدح أصوات الطبول والمزامير و الزغاريد و التصفيقات. و حتى في عمق الليل يلجأ الشرفا إلى استخدام هذه التعبيرات عن الفرح ، و التي تستمر تقريبا حتى يوم العقيقة حيث تتضاعف شدة الضوضاء. » (المرجع نفسه، 350) . و يمكن القول أن الأمور لم تتغير منذ ذلك الوقت.

184 المستخدم في إطلاق النار في الفنطازيا.

185 و لكن هناك حقيقة جدير بالذكر هي أن كين لا تسقط في تقوقع ذاتي أوروبي ما ، بما أنها تلاحظ أن شعبا مثل الأسبان يشبه كثيرا المغاربة على وجه الخصوص بشأن هذه النقطة. «إن المغربي لديه خيال مفرط كما هو الإسباني.» و لهم صفات مشتركة أخرى. فالناس يصرخون عندما يتحدثون، كما أنهم أناسا عاطفيون وعنيفون وهكذا و بسبب تافه « يتشاجرون بالصراخ الذي يخشى معه الوصول إلى فعل القتل ، وبعد نصف ساعة يعود كل شيء إلى الهدوء. » (المرجع نفسه،ص 142). ولكن هنا هل يبقى من الضروري أن نؤكد أننا أمام الصورة النمطية، سواء تعلق الأمر بالمغاربة أو بالأسبان!

186 « كان من المحزن أن نرى هذا الرجل اليقظ، ، الصريح، و الزوج الصالح والأب المخلص ، بذكاء أعلى بكثير من معظم المسلمين، يسير في طريق كانت تقوده إلى الخراب و الاستسلام لتأثيرات غير عقلانية لا يمكن معادلتها بأي منطق عقلي أو أية قناعة. .» (المرجع نفسه، 285)

يصبحوا على دراية تامة بالموضوع المعني.» (المرجع نفسه، 305)[187]. و تؤكد كين هذه الصفة في روايتها: «المغربي لديه خيال وقاد بحيث يشتعل بسرعة »، الأمر الذي يسبب، كما تقول، مشاكل خطرة بين الناس. وهكذا فالشك القائم بين العائلة الحاكمة وعائلة وزان يفسر جزئيا بهذه الإمكانية الخادعة، لأنها انتشرت من قبل الخدم الذين يعنيهم الأمر الذين كانوا « بدون ذرة من الحقيقة» يفسرون بعض الإشارات أو الإجراءات ، و يضعون تلك التخمينات التي بنيت على أساسها حملة الاضطهاد!

و يمكن أن نضيف هنا ملاحظة على سمة بارزة تثير انتباه الكاتبة التي تدعي أنها مشتركة لدى كل المغاربة، وهي الميل إلى الإسهاب في الكلام والتقاعس عن العمل حتى في أخطر القضايا، مثل تلك المتعلقة بالسياسة. وهكذا، تعليقا على المحادثات بين السلطان مولاي الحسن و بين الشريف، تلاحظ أن المفاوضات تدوم كما هو الحال في المغرب حيث كل شيء يؤجل إلى « غدا إن شاء الله ». و ما أثار إذن انتباه هذه الإنجليزية ذات العقلية العملية، هو حقيقة أن هناك الكثير من الكلام و الثرثرة دون فائدة تذكر، لا يتم الذهاب مباشرة إلى الهدف، فهم ليسوا برغماتيين ، ويبدو أن الوقت لديهم ليس له أية قيمة، و يضيع من دون ضبط النفس. و ما وراء الصورة النمطية نجد أنفسنا أمام نوعين مختلفين من الثقافات ومن العقليات. كما تؤكد كين على «الطريقة المبالغ فيها والمعتادة » لدى الأهالي وخاصة عندما ينقلون معلومة ما، فهم يميلون إلى تهويل الأمور ويقدمون الأشياء عامة بكثير من عدم الموضوعية [188].

و سنكتفي بهذه الجوانب التي حددنا من التقديم الذي تعطيه الكاتبة عن الذين تدعوهم بالمغاربة. و لكن ما هو مثير للاهتمام و رائع في قصة كين هو أنها تمكنت من القطع مع العديد من النقاط بصدد الصورة النمطية، و هي تظهر لنا المجتمع في تنوعه، مع الجوانب الأخرى التي تبدو إيجابية، مجتمع يعمل في دينامية، ليس ثابتا في انسداده، في عيوبه أو أعطاله .

هكذا تشير كين إلى تغير واضح في المواقف في اتجاه إيجابي لكل ما يتعلق بمشكل حفظ الصحة أو التربية. فالناس يقبلون الإصلاحات التي تحاول إدخالها بدعم من الشريف الذي يلعب دورا إيجابيا في ذلك. و عندما يتعلق الأمر بتطعيم الأطفال، إذا كانت هناك مقاومة، «كان كافيا بالنسبة له للتعبير عن هذا الرأي ليأتي الناس إلي بالأطفال الذين كانوا قد تجنبوا الوباء و من كل الأعمار» (المرجع نفسه، 133). وهي تشير إلى التقدم الكبير للتلقيح، والناس تستجيب بشكل إيجابي لهذه الحملات وللرعاية الصحية. و مع مرور الوقت بدأ العديد من الناس يتقدمون بطلب اللقاحات عن طيب خاطر. ونظرا لارتفاع الطلب، كان عليها تدريب ممرضات مساعدات، مما يدل على تطور العقليات . و لإظهار المفارقة تقول: «هم الآن مقتنعون بأن المبشرين قادرون تماما على القيام بنفس المساعي الحميدة للأولياء الصالحين، و

---

187 كما لو في أوروبا لم يكن هناك أشخاص عرضة لمرض الأعصاب أو الذهان و الاضطرابات السلوكية من نوع جنون العظمة ! يبدو علاوة على ذلك أن حالة شريف خاصة جدا، لأن المخاوف حول حياته لا يبدوان لها أساس ا من الصحة.

188 في نفس الاتجاه، كانت لديها فرصة للشكوى من أحد الخدم الأوفياء و هو محمود ، و الذي بسبب هذه النزعة إلى تشويه الأمور عند نقلها كان وراء حادث خطير. انظر (المرجع نفسه، 277). لكن كين تحكم على ذلك أنها سمة جماعية والناس هنا لديهم عادة ألا يقدموا بدقة ما سمعوا.

لا تنقصهم إلا البركة » (المرجع نفسه، 134). و يلجأ أيضا إليها فيما يخص النظام الغذائي للأطفال، و بفضل تأثيرها انتشر استخدام زجاجة إرضاع الطفل. و هي تلاحظ الأثر الإيجابي لنصائحها عندما لا توافق الأمهات على إعطاء الأطفال الرضع الشاي أو القهوة، وتنصحهن بإطعامهم الحليب. و تشير إلى أنه بعد عمل متواصل من جانبها « تحسنت وضعية الرضع بشكل كبير وانخفض معدل وفيات الأطفال بشكل كبير مقارنة بما كانت عليه قبل ثلاثين عاما. » (المرجع نفسه،ص 353). و في بداية إقامتها كانت ترى كيف يعبر الأهالي عن عدم الثقة في استخدام الأدوية من أصل أوروبي، لكنها تسلط الضوء على التغييرات الهامة التي تحققت عندما تقارن وضعية الثمانينات مع الفترة التي تكتب فيها قصتها (1910)[189]. و بخصوص الحفاظ على النظافة فهي تلاحظ نفس التقدم. ففي حين كانت النساء مترددات في منح حمامات لأطفالهن الرضع، فإنها تشير إلى تطور العقليات مع العدد المتزايد من «النساء الواعيات» اللواتي يستخدمن الصابون والقفازات لغسل أطفالهن بانتظام.

و كشاهدة على مجتمع يتحرك، تشير كين إلى رجال، من بين الناس الذين عرفتهم، هم أنصار الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بدءا من زوجها الذي «يتطلع لرؤية الكثير من الإصلاحات في البلاد». وأفكاره حول هذا الموضوع كانت تعتبر التطور ممكنا من خلال إنشاء البنية التحتية. وتشير إلى النظرة البعيدة المدى لبعض الشخصيات من «العلماء» الذين يبدون إصلاحيين (المرجع نفسه،ص 323) من خلال هذا الإشارة: «إذا كنا في ذلك الوقت قد عرفنا في المغرب شيء مثل حزب تركيا الفتاة ، برجال مثل أولائك الذين تعرفت عليهم، كان بمقدورنا أن نطور حزبا للشباب المغاربة. » (المرجع نفسه،ص 324)

كانت هذه الإنجليزية مصدومة بالتأكيد بالتأخر المتراكم في عدة مجالات و بالطبيعة المحافظة للمجتمع المغربي. و كان البلد يبدو لها مصابا بالشلل. و مع ذلك، فليس الإسلام في نظرها هو المعني بالأمر، و لكن المعنية هي العقليات. و هي تلخص رأيها كما يلي : «العديد من المبادئ (الإسلامية) جميلة جدا، و إذا كانت تتبع سيكون الناس سعداء. ولكن للأسف الممارسة على طرفي نقيض مع عقيدة الإسلام. و الطبيعة المحافظة للعقيدة الإسلامية تعوق التقدم، و بذلك يجب أن يفسر الشلل العام لعدة قرون.»(المرجع نفسه،ص ص 355-356).

وسنختتم هذا التحليل للتمثيل الذي تعطينا كين عن المجتمع المغربي من أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين بهذا التفكير لديها. لقد سمحت لنا أن نلاحظ حقائق مجتمع و حضارة، وملامح عقلية و معتقدات مجتمع شوهد و حكم عليه من طرف أوروبية و هي تراه انطلاقا من ثقافتها. و من المؤكد أن كون كين إنجليزية لم يكن بمقدورها أن تفهم أو تعترف بالعديد من أخلاقنا و قيمنا، و لكن نجد في كثير من تفكيرها، تعليقات أو آراء، تقييمات يمكن أن نتلاقى معها، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالحاجة إلى الإصلاحات، و إلى بعض تفسيرات الإسلام التي تولد القدرية أو روح التعصب، وبعض

---

[189] فهي تكتب « نبحث اليوم أكثر فأكثر عن المساعدة الطبية.» (المرجع نفسه،ص 133)

الممارسات التي تدل على سوء المعاملة أو التمزق الاجتماعي، والعيوب مثل الأمية، وانعدام النظافة، الخرافات الخ ..

و نريد أن ننهي هذه الدراسة بحكاية معبرة جدا عن عقلية و موقف كين تجاه بلدنا . فهي كانت أوروبية مشبعة بشكل طبيعي بتفوق ثقافتها، و مع ذلك، كانت ميالة إلى الانفتاح على بلدنا بخصوصياته الثقافية و الاجتماعية بتكوينها نظرة متسامحة ومتفاهمة عن المجتمع الأهلي. و هي أيضا لم تكن تشارك الكثير من المسيحيين أحكامهم المسبقة التي كانت في ذلك الوقت. و عندما قامت برحلة إلى إنجلترا، بعد أن أمضت عشرات السنين في المغرب، التقت برجل مسن حكى لها أنه كان يوجد في سنة 1875 بجبل طارق[190]، وكان يأمل في زيارة طنجة في ذلك الحين، غير أنه تم ثنيه على القيام بذلك، لأنه قيل له أنه كان سيذهب إلى « بلد القتلة»! و ردا على ذلك أوضحت له « أنه أعطي له انطباع خاطئ.» (المرجع نفسه، ص348).و هكذا كانت هذه المرأة تدافع عن المغرب لأنها قد عرفته من الداخل وليس عن طريق الإشاعات أو من خلال بعض الانطباعات السطحية.

يبدو أن قدر كين كان فريدا بصفتها إنجليزية تقبل في القرن التاسع عشر الزواج من مغربي صاحب مكانة مرموقة ، وتستقر في بلد مسلم. لذلك دعونا نطرح هذا السؤال: لماذا اختارت إنسانة أجنبية أن تواجه رهانا صعبا كان يبدو للبعض بمثابة تحد مفرط و لا يصدق[191]؟

بالجواب على هذا السؤال نريد إنهاء هذه الدراسة .

خاتمة :

ماذا كان غرض كين من العيش في المغرب ؟

لم يكن اختيار إميلي سهلا دون شك. و من المؤكد أن الحب يفسر جزئيا المسار الذي اختارته. و مما لا شك أن سحر الشريف كان أساسيا في اتخاذ قرارها .و دون شك أيضا محاولة تحقيق عيش حياة باذخة : أوروبية ذات وضعية بسيطة تتزوج من أمير شرقي[192]. ولكن هناك، في رأيي، سبب آخر جعل إميلي تقبل أن تعيش في بلد أجنبي حيث كانت تنتظرها العديد من التحديات. فالفرضية التي أصوغ هي أن هذه المرأة الذكية كانت يحركها هدف شاسع. هذه المرأة ذات الشخصية القوية، و الأفكار الواضحة والطموحة كان لا بد أيضا أن يكون لها مشروع يعطي لحياتها معنى. هذا الهدف هو ما أسميه بالعمل التحضيري، دون أية دلالة أو فكرة استعمارية مسبقة. فكين التي كانت تبدو من البداية قد أحبت المغرب أرادت دون شك أن تقوم إلى جانب زوجها ، و من خلاله أو بفضله، بعمل في العمق لإصلاح المجتمع. لأنه يجب التأكيد على أن المجتمع المغربي، مثل غيره من المجتمعات العربية و المسلمة، كان

[190] إذن سنتين بعد زواجها من الشريف .

[191] و كان هذا رأي عائلتها وبنو جلدتها.

[192] ينتمي شريف وزان إلى أسرة شريفة تنحدر من السلطان مولاي إدريس مؤسس الدولة المغربية.

جسدا مريضا[193]. ويبدو مشروعها المجتمعي ضمنيا في عدة أسطر من القصة. و هي تلخصه بشكل جيد للغاية حيث تشير في مقطع إلى وجود رجال في المغرب مثل الشريف، كانت لديهم أفكار حديثة، و كانوا يطمحون إلى التقدم ويريدون إصلاحات سياسية و اجتماعية. و هي تلمح بذلك إلى حركة الشباب الأتراك [194]. وإلى جانب ذلك، فإنها تزوجت الشريف لأنها وجدته مختلفا عن بني جلدته و يحمل أفكارا أوروبية. وينعكس هدفها بشكل واضح في السطور الأخيرة من قصتها التي أنهتها بهذه الكلمات: « سأنهي قصتي (...). أنا لا أنصح أي شخص أن يتبع طريقي. و في نفس الوقت أنا لست آسفة و لو لمرة واحدة. وآمل أن يكون لأربعين عاما من حياتي بين المغاربة تأثير مفيد على المستقبل. [195]»

Références bibliographiques :

مصادر و مراجع بيبلبوغرافية:

Keene, Emily: My life story. Editions Edward Arnold, Londres, 1911

Keene, Emily: Histoire de ma vie (Edition française établie par El Yamlahi Mohamed et Zemmouri Mohammed Saâd). Publications du GREMENORD, Tanger, 2001.

Chimenti, Elisa : Souvenirs d'une Tangéroise (Texte dactylographié inédit, consulté aux Archives de l'auteur au Consulat d'Italie à Tanger).

Foucauld (De), Charles : Reconnaissance du Maroc (1883-1884). Edition L'Harmattan, Paris, 1998.

Montesquieu (De), Charles Louis de Secondat : Lettres persanes, Edition Garnier Flammarion, Paris, 1995.

Pageaux, Daniel-Henri : La Littérature générale et comparée, Edition Armand Colin, Paris, 1994.

Saïd, Edward W. : L'Orientalisme, Edition du Seuil, 1997

Saïd, Edward W. : Culture et impérialisme, Edition Fayard Le Monde diplomatique, 2000.

193 كما يعلم الجميع كانت الإمبراطورية العثمانية في القرن XIX تعد رجل أوربا المريض.
194 نذكر أنها ستأتي بمصطفى كمال إلى السلطة في تركيا مع بداية القرن التاسع XX.
195 نفسه ص 367. التأكيد من عندنا.